

«الساعات التي يقضيها الأطفال أمام التلفاز هي عبارة عن مادة مخدرة خفية يستخدمها الأبوان، فالأطفال الصغار بمجرد وجودهم مرتاحين على أرضية البيت الخشبية أمام شاشة التلفاز، يعم مباشرة صمت مطبق رائع ولكنه مُريب...»

مقولة مستقاة من جريدة نيويورك تايمز عام 1948م!

## الفصل الخامس

### التلفاز والحياة الاجتماعية والطفل في هذا الخضم

إن خطورة التلفاز لدى الأطفال - أو هيمنته عليهم إذا أردنا - تدعو إلى القلق.

إن القلقين وربما المهاجمين في المقام الأول هم الوالدان والمدرسون. وهذا أمر منطقي جداً: فهذان الصنفان من الكبار يعيشان يومياً التطور الحاصل في عالم الأطفال المحفوف بالتيهان والمخاوف والفرحة والقيود. فالمدرسون الذين يقومون بمهمة التربية يرون بانزعاج ممزوج بالاحتقار أو الذعر الأطفال الذين أكلوا إليهم من قبل المدرسة يصرفون وقتاً متزايداً من فراغهم أمام أجهزة التلفاز.

إنهم يشاهدون الأطفال! هل هذا التلصص ناقذ؟ أم أنه عفوي، أم أنه مجرد تلصص ليس إلا؟

### هل هي محاسبة على النوايا؟

قبل أن ندخل موضوع تأثيرات التلفاز على الناحية الاجتماعية للطفل من بابه الواسع، بدا لنا أن نحدد مسؤولية الكبار كحماة لأرواح الأطفال.

في المحاكمة الأخلاقية التي تفصل بين العديد من الآباء وتقريباً كل المدرسين من جهة، والهدرة (أفغوان خرايفي ذو تسعة رؤوس) التلفازية، هل يلعب المدرسون دور المدعي العام أم الشهود أم المتهمين أم شركاء الجريمة؟ السؤال جوهرى، وتجاهله يدل على استهتار يشوبه الخداع، ونحن سنحاول الإجابة عليه بإسهاب، أو توضيح ملاساته على الأقل. نعم، فالوالدان والمدرسون لهم الحق بل ويجب عليهم أن يلعبوا دور المدعي العام طالما أن البرامج المخصصة للأطفال والشباب ظاهرة الرداءة والتعاسة. وبحكم كونهم مسؤولين ومستهلكين و«دافعي ضرائب»، يتوجب عليهم عرض أفكارهم وملاحظاتهم وتصوراتهم حول تلفاز يحترم الأطفال. ولكن ما الإمكانيات والوسائل المتاحة للقيام بذلك؟

لا شك أن الوالدين والمربين هم شهود فعليون، ولكن شهاداتهم ليست غالباً سوى ملاحظات محدودة وسطحية، فنادرهم هم المدرسون القادرون على المراقبة الرصينة والملائمة لاستهلاك الأطفال للتلفاز، وتأثيره المحتمل عليهم، إن ملاحظاتهم سطحية حتمية وقاسية وينقصها أبسط قواعد الموضوعية، فهل يمكننا قبول شهاداتهم؟ أم أنهم فاعلون؟ وكى يستحقوا هذه الصفة يجب على المدرسين وخاصة الوالدين أن يشاركوا في اختيار البرامج المشاهدة مع أطفالهم، ويقبلوا أن يشاهدوا التلفاز معهم، وأن يتناقشوا معهم ويتحاوروا ويتبادلوا الآراء حول البرامج، إن الحوار مفقود في كثير من العائلات - وكثير من الصفوف بالتأكيد! - إن النظر معاً وباتجاه واحد وإن كان باتجاه التلفاز، والمشاركة الفعلية يعنيان فعلاً أن نكون فاعلين! ونحن ما زلنا بعيدين جداً عن هذا.

بقي في هذه المحاكمة التي يتهم فيها التلفاز بسوء النية أن نحدد درجة إسهام الأهل مهما كانت من ناحية سلطتهم الأبوية والتربوية، وهنا أيضاً يتبين لنا أن المسؤولية كبيرة وثقيلة.

من يشتري التلفاز وجهاز الفيديو؟ من يدفع رسوم الاشتراك؟ من يضع الجهاز وسط غرفة الجلوس (وأحياناً جهازاً آخر في غرفة الأطفال)؟ من يقضي سهرة كاملة أمام الشاشة الصغيرة؟... من الإجابة المتشابهة على كل هذه الأسئلة يبدو لنا من الصعب جداً أن نحكم بخلو طرف الأهل من إسهام بالإيواء، وإسهام بالقدوة. وهنا، قراءنا الأعزاء وأصدقاءنا الأوفياء للحظات، يجب علينا أن نقبل باستبدال ثوب المدعي العام بثوب محامي الدفاع.

### هل التلفاز أفيون الشعوب؟

إذا كان البالغون سواء كانوا آباء أو لم يكونوا، وسواء كانوا مدرسين أو «كارهين للأطفال»، يشاهدون التلفاز، فذلك لأنهم بحاجة إلى مشاهدته، وأنهم يحبون أن يعيشوا لحظات العطالة الفكرية التامة، إنهم يحلمون بنسيان عالم متاعبهم اليومية، والطقوس المزعجة المرافقة له، وأوضاعهم المهترئة، إنهم يريدون بكل بساطة أن ينسوا أنفسهم خلال لحظات، ولا داعي لأن يُشعرنا أحد بوجود صراع بين الثقافة والإعلام، فالبرامج من هذا النمط نادرة جداً، وتبث في ساعات غير معروفة، ولا يسعنا إلا أن نهنئ المنتجين لهذه البرامج الذين يتابعون السير في هذه الطريق النبيلة المعزولة. لننظر حولنا، ماذا يريد معظم الناس؟ وقتاً حراً وملابس، وإجازات على شاطئ البحر أو للتزلج على الثلج، ومراكز تجارية، وعبوات معدنية للمياه الغازية، ومراكز لياقة، ومجلات مليئة بصور الليدي ديانا...

يريد الجمهور أن يتسلى، وأن يقتنع بأنه يلهو حتى لا يشعر بأزمته الإنسانية التي يمكن تفهمها، إنه يهرب من الواقع ويعزل نفسه بحسب استطاعته، فمع ضياع مصداقية رجال الكنيسة، وغلاء أجور المحللين النفسيين، والعزلة السائدة في المدن الكبيرة، يبقى التلفاز الوحيد تقريباً القادر على تخفيف آلام البؤس والخوف عند الإنسان، في أي وقت وأي مكان وأي وسط اجتماعي.

ويمكننا سماع من يحنون «أيام زمان الطيبة» يكيلون المديح لمجتمع متضامن، وعائلات متماسكة، وأجيال تعيش تحت سقف واحد، والولائم العائلية الكبيرة حيث تُطرح بجمل عبارات حول أمور الحياة.....

ولنفتش قليلاً في ذاكرة الأيام السابقة مستعينين بعضا الأمانة، وسنجد فيها الفقر والحرمان، والتسلط الأبوي العنيف، والكحولية والتدرن الرئوي، وأوضاع المرأة المزرية، واستغلال الأطفال، وتفاوت طبقي اجتماعي لا يمكن تجاوزه، ومتع مخصصة حصراً لتنويم الدماغ وجموده.

لم يدمر التلفاز شيئاً، ولكنه لم يبن شيئاً لائقاً، لقد تطورت مجتمعاتنا لتزيد من حظوظ المادية ببشاعة، والأنانية الشخصية أو العائلية، وليس التلفاز سوى واحد من مكوناتها يحمل الانعكاسات المتدنية التي نعرفها.

### «أصبح التلفاز محرك المجتمع»

كارلوفريكسيرو هو أحد المفكرين المهتمين بالتلفاز الأكثر أصالة. بعد أن انفصل عن السيد بيرلسكوني الذي اشتغل معه بدايات كمستشار، التحق بجان بيير إلكاباش، في تلفاز فرنسا حيث أصبح مسؤولاً عن الإنتاج.

LNQ (أحرف من بدايات اسم الشخص الذي أجرى المقابلة):  
لم يكن التلفاز بهذه القوة أبداً، ولكن لدينا شعور بأنه لا يعرف إلى  
أين يسير...

كارلوس فريكييرو: إننا نعيش نهاية تلفاز العروض في الثمانينات.  
هذا التلفاز كان، فقد كان «يسرق» أفضل ما عند وسائل الإعلام  
الأخرى، كالسينما والمنوعات والموسيقى والرياضة، إننا اليوم في  
مرحلة ثالثة، فقد أصبح التلفاز ملك وسائل الإعلام، إنه هو الذي  
«ينتج» الحياة الواقعية، وهو الذي ينتج السينما وحتى الرياضة.  
بدون التلفاز بطولات العالم الرياضية لا وجود لها، وقد أصبح  
التلفاز منتجاً حتى لأحداث الإنزال العسكرية، فالحقيقة أصبحت  
تصنعها وسيلة إعلام مهمتها الأصلية إنتاج الخيال...

إننا حالياً في مرحلة انتقالية. ويلزمها تجميع كل شخصيات المرحلة  
السابقة واستخدامها بالكامل وعصرها كما يُعصر الليمون (...).  
ونشعر بأن ملاً قد تولد عند المشاهدين من تلفاز الثمانينات فهم  
يطلبون شيئاً آخر، ويريدون تلفازاً ذا علاقة حميمة مع الحياة...

هذا ما أدعوه الانتقال من التلفاز القائم على الاستعراض والواقع  
إلى التلفاز الديمقراطي، كان لتلفاز الاستعراض - الواقع وظيفه  
انتقالية، أما التلفاز الذي نقوم به اليوم فهو يعكس بقوة استطلاعات  
الرأي، لقد غدا المشاهدون كاتبين للسيناريو، إن أفضل الأفلام  
التلفازية تسويقاً هي الأفلام التي تتكلم عن الواقع، مثل «المؤسسة»،  
خيال ذو علاقة وطيدة بالاستعراض - الواقع، سوف يتم بالتدريج  
استبدال التلفاز القديم بالتلفاز الواقعي الجديد، وهو تلفاز الحياة

اليومية السياسية، وإن النجاح التلفازي للسيد برنار تابي يفسره هذا، إنه التلفاز الذي أصبح محرك المجتمع.

أحدهم قال إن السينما هي «الموت أثناء العمل». أما التلفاز فهو على العكس «الحياة في العمل». إن البرنامج التي تعرض الحياة هي التي ترسم تلفاز المستقبل.

ولكن التلفاز هو آلة خطيرة، آلة تحدث الخراب.

ولنأخذ إيطاليا مثلاً، فالتلفاز ساعد عملية التنظيف وجلاء الأمور، ولكنه بمفارقة ساعد كذلك بيرلوسكوني إلى الوصول؛ لأنه لم يوجد شخص يواجهه، ولأنه فهم تماماً قواعد لعبة التلفاز، إن «التنظيف» سمح بفرض رجل من الحرس القديم كبيرلوسكوني، لأن التلفاز يجيد هدم الماضي ولا يجيد البناء، ولكننا بحاجة دوماً للإيجابية، والشخص الذي يجيد بعث الإيجابية على التلفاز، يستطيع التحكم بقواعد اللعبة، وإن لم يكن هذا الأمر جديداً، هذه هي خطورة التلفاز، وكأننا بحاجة لتأكيد أن التلفاز لا يعني الحرية. والتلفاز أيضاً في كثير من الأحيان هو حلبة صراع الفكرة الوحيدة....

لقد أصبح التسويق هو حلبة الفكرة الوحيدة، ولكن يفترض بالتلفاز أن يكون مكان الفكرة الثنائية، فإذا أخذنا السياسة مثلاً فهو السيد تابي وجهاً لوجه مع السيد دوقيليه، يصعب اليوم على كل الأشخاص الذين يوحدون الناس أن يكونوا في حالة انسجام مع روح العصر على التلفاز، إن الرابع هو الذي سيكتشف ميشيل بولاك الجديد (مُعدُّ برنامج مخصص للحوار كان يحتد فيه الجدل والنقاش في الثمانينات وعنوانه «حق الإجابة»). وبسبب الدعايات

يجب التأكد من وجود مشاهدين مضمونين، وهكذا يستحيل علينا  
التجديد. إن الدعاية تحمل مسؤولية كبيرة في قلة الشجاعة.

أقوال لكارلوفريكسيرو جمعها جان مارسيل بوغيرو/ اليومية

Le Nouveaue Quotidien الجديدة

18 تموز م 1994

إن التلفاز لم يصمم أبداً للأعلام أو الأبطال أو الحكماء، هذه  
الذبابات البيضاء من البشر التي تعرف كيف تتغلب على وحدتها، إنه  
وسيلة إعلام للرعاع، وهذا يعني الغالبية الساحقة من الجنس البشري،  
أي أنه صمم لنا كلنا، الإبداع بغرض التسلية ليس له هدف سوى جذب  
وأسر وحبس الناس الضعفاء والمستسلمين، استعراضي وسطحي هدف  
التلفاز هو العرض وليس التثبيت، كثير الكلام بدون طائل وسطحي قد  
دخل في آخر غرف الجلوس التي يُتكلّم فيها ليصمت الناس، إننا نادراً  
ما نتناقش أمام التلفاز، فنحن نقلب المحطات ونتسلى بالطعام ونتخاطب  
همساً، فالوالدة تخطط والوالد يغط في نومه، نستهلك مادة التلفاز ونتأثب  
ونضحك ونحك جسمنا ونتلاشى، وفي الغد نكون قد نسينا كل شيء، كما  
يحصل لأحلامنا لنبدأ من جديد... إن التلفاز آلة عجيبة تجعلك تحلم  
وأنت واقف، وتحلم وأنت جالس أو مستلق، إنه مشروع عجيب لتعطيل عمل  
الدماغ أي المفعول.

إن التسامح في الدور الاجتماعي للتلفاز عند البالغين ظاهر للعيان،  
وذلك يدفعنا للاستغراب من كون الذين يمارسونه بسلبية المصاب  
بالتوحد، هم أنفسهم الذين يرفضون بقوة استخدام الأطفال له، إنه عبارة

عن أمرٍ متناقضٍ كاذبٍ من ناحية؛ لأن الغالبية الساحقة من مشاهدي التلفاز الكبار ليسوا تحت سيطرة المشاهد التي يرونها، ويعرفون كيف يضعونها في موضعها الصحيح، بالفصل بين ما هو حقيقي وما هو خيالي بهدف التسلية، ولكنهم يشكون في قدرة أطفالهم على القيام بذلك.

ومن جهة أخرى، فإنهم يشعرون بالذنب لإهمالهم أطفالهم، وتركهم لتلفاز هم أنفسهم لا يستطيعون الاستغناء عنه، رغم كونه لا يقدم لهم سوى القليل ثقافياً واجتماعياً؛ بينما تقوم الحياة والمدرسة والتأهيل خارج البيت على قيم مختلفة، ولكن هل نحن متأكدون فعلاً من ذلك؟

### التلفاز والتفاعل العائلي

من خلال العديد من التحريات الجديدة تماماً التي أجريت حول الدور الاجتماعي للتلفاز، حصل إجماع حول التأثير السيئ عموماً في هذا الجانب، وذلك مهما كان عمر المشاهد، سواء كان 7 سنوات أو 77 سنة.

ولكن يجدر بنا الانتباه لنقطتين إيجابيتين نوعاً ما:

- التوترات العائلية الكبيرة ضمن العائلة، النزاعات تنتهي لتنقص الوقت والنقاش اللازمين لتفاهمها، يقوم التلفاز بدور الوافي - كما يحمي وافي الشمس من ضررها - من الأحقاد والضعيفة، من خلال تأثيره المنوم وهيمنته التي تحل النزاعات المعقولة.
- يُميت التلفاز على النشاط العائلي تدفق الطُرف وحوادث المجتمع والاستعراضات والحوارات ومنتجات يمكن لها أن تغذي مادة الحديث، وتكون رابطاً وربما حاجزاً بين الطفل وأصدقائه في المدرسة وعائلته.

إن النقطة الأخيرة وحدها كافية لإراحة ضمير معظم الأهل بتبرير وجود التلفاز في البيت: «كل أصدقائه عندهم تلفاز، ونحن لا نريده أن يشعر بأنه شاذ عن القاعدة، وأن نُبعده عن الواقع»، «لولا لم يكن عندنا تلفاز، فإنه سيذهب ليشاهده عند الأصدقاء»، «وإذا لم يكن بإمكانه مشاهدة برنامج «زحف القرن العشرين»، فكيف يمكن له أن يجيب على أسئلة الأستاذ حول موضوع الحلقة؟».

العديد من التأكيدات التي لا تتجح في إخفاء تخلي الوالدين عن دورهما في التربية، فهم يحيلون مسؤولية استغلال التلفاز على الآخرين: الأصدقاء، المدرسة... إن الأطفال المحظوظين الذين نشؤوا في وسط عائلي مشجع يُحفظ الحوار ويحترم الاستماع، يمكنهم بدون شك الاستفادة من الساعات التي يقضونها أمام الشاشة الصغيرة، والأهم من الحالة المادية المريحة، هو المستوى الثقافي الاجتماعي للأب الذي يلعب دوراً محورياً، ولا شيء يثير الدهشة كالحقيقة الآتية: يصعب تعديل السوية الاجتماعية والثقافية. ولكن مستوى الثقافة له علاقة بالإرادة والمعرفة والتصميم، فالمال لحسن الحظ لا يصنع كل شيء، وهذا يبعث على الأمل، وسنعود لهذه الأمور في الفصل الأخير من الكتاب.

### مشاهدة التلفاز والمستوى الاجتماعي الثقافي

إن أكثر المؤشرات التي تشير إلى استهلاك الطفل للتلفاز هو مستوى تعليم الأم.

ويمكننا أن نستنتج نوعاً من السلوك:

الطفل الأقل مشاهدة للتلفاز:

• طفل صغير عمره أقل من 10 سنوات.

• وحيد.

• أمه وصلت للتعليم العالي.

• أبوه يشغل منصباً مهماً أو يمارس مهنة حرة.

الطفل الأكثر مشاهدة للتلفاز:

• مراهق عمره 13 - 14 سنة.

• من عائلة فيها ثلاثة أطفال أو أكثر.

• أم وصلت لنهاية المرحلة الابتدائية فقط.

• أب عامل أو عاطل عن العمل.

يظهر من خلال العديد من الدراسات أن العامل الأكثر أهمية في

تحديد استهلاك التلفاز هو الوسط العائلي وقيمه.

معلومات مستقاة من محاضرة ألقته الدكتورة كارين بوتشي

طبيبة ملحقة بإدارة الخدمات الصحية في قسم التعليم الحكومي

في مقاطعة جنيف، لوكارتو، تشرين أول 1990م.

مشاهدة التلفاز هي «فعالية» ذات طابع عائلي، وهذا يعني أن كل فرد

من العائلة يشارك به، وحده أو بصحبة الآخرين.

إن وجود الطفل وحيداً أمام التلفاز هو أمر نادر الحدوث، وهناك عدة

احتمالات ممكنة، فيوجد أطفال لا يشاهدون التلفاز وحدهم أبداً، وآخرون

يشاهدونه لساعات وحدهم، ونمط ثالث يشاهدون التلفاز مع بعضهم دون

وجود بالغين معهم.

فيما يتعلق بمعظم الأطفال لا توجد طريقة وحيدة طقوسية لمشاهدة التلفاز، فيمكن لنا أن نشاهده مع بيير أو بول أو جان كما اتفق. «إن التلفاز ليس كقالب الكيك الذي ينقص نصيبتنا منه كلما زاد عددنا». فالتلفاز شيء نشارك به الآخرين! لسوء الحظ، يبدو أن كلمة مشاركة لا تعني أبداً الحوار أو التساؤلات المشتركة أو النقاش أو الحصول على معلومة.

### بين الوقاحة واللامبالاة

جواباً على سؤالنا «هل تتناقشون مع والديكم حول ما تشاهدونه على التلفاز؟» يقول تلاميذنا الكبار: «أحياناً» أو «نادراً» أما الصغار السن منهم فيفاجئهم السؤال، ويلزم أن نشرح لهم ماذا نقصد منه، فالبعض منهم يعتبر طلب الإذن بتشغيل التلفاز هو «نقاش» بحد ذاته، وبعد توضيح الأمور لهم جيداً، تبين أن معظم المشاهدين صغار السن نادراً ما يتبادلون الحديث مع الوالدين بخصوص ما يشاهدون.

ولذلك سببان كلاهما وجيه ويفسر ما يحدث ويمكن أن نستنتجه من أقوالهم.

أولهما عائد إلى أن الأهل لا يهتمون بالبرامج المخصصة للأطفال، وأن هذه البرامج تُعرض في أوقات لا تناسبهم، وأنهم يفضلون إذا كانوا موجودين في المنزل القيام بأعمال منزلية بدلاً من إضاعة الوقت في هذه الأمور الطفولية.»

ثانيهما: عائد إلى طبيعة التلفاز العابرة والزائلة والمستسلمة السلبية، والتي تلخصها تعابير العديد من المراهقين، «ولكن الحديث أثناء البرنامج مزعج!». بالتأكيد، ربما، مع أن، ولكن، وماذا بعد؟ «بعد البرنامج يكون

الوقت متأخراً ويجب علينا أن نذهب للنوم». يعترف البعض أنه حصل على إيضاحات لبعض الأمور وربما امتداد للبرنامج، ولكن هذا الأمر نادر الحدوث، أما الغالبية فلا ترى حاجة لذلك لأن كل المشاهدات العائلية المشتركة للتلفاز تقتصر على أفلام المغامرات أو المسلسلات «البسيطة» إن نتائج استطلاعنا المحدود نسبياً (ثلاثون طالباً تقريباً) تشابه تلك التي حصلت عليها ليليان لورسا في عام 1989م، ونجدها في تعليقها: «التساؤل حول الحوار مع البالغين يبدو وقحاً، فإذا اعتمدنا على شهادات الأطفال، نستنتج أن لا أحد يتكلم معهم حول ما يشاهدون، إن الكلمات المستخدمة لاستجواب الأطفال لها دلالات معبرة، فالحديث يعني الشجار، ومن ثم مجموعة من الاستطرادات الدرامية، والكلام يعني المضايقة: لأنه يُحدث ضجيجاً، وعندما نستخدم كلمة يشرح، فهي تعني في كثير من الأحيان يُوبخ، وأحياناً تعني الشجار والصراخ كذلك».

«اصمت عندما يتكلم التلفاز!» أو «لا تلمس جهازي» هذه هي الشعارات التي يمكن أن يرفعها مدمنو التلفاز في نهاية القرن العشرين. ظهر التلفاز فجأة كاندفاع بركاني في الحياة العائلية قبل ثلاثين عاماً، وخلال زمن قصير احتل مكانة في جميع البيوت تقريباً، إن استخدامه واستخدام الأجهزة المتعلقة به (جهاز الفيديو، الكاميرا، كاميرا الفيديو، الألعاب الإلكترونية، والمينيتل....) أصبح طبيعياً تماماً دون أن نقلق أبداً بخصوص تأثيراتها الاجتماعية، والنتيجة اليوم قاسية.

فالتلفاز لم يشجع الحوار وتبادل الأفكار والنقاش ضمن الأسر، ولكنه لم يسبب في كثير من الأحيان إلا عزلة اجتماعية، وتشجيعاً على الاستهلاك أناني وانفرادي.

هل هذه الظاهرة قابلة للتراجع؟ بحكم التفاؤل الذي بُنيت عليه مهنتنا كمعلمين، وبحكم كوننا آباء، لا يمكننا إلا أن نجيب بالإيجاب، ولكن إفتناع الوالدين بعدم تسليم أبنائهم لهذه الحاضنة (مُربية الأطفال) الرخيصة والمتوفرة يبدو مهمة صعبة، فلا بد من استعادة السلطة والكلمة في وجه هذا المُخدر الذي يخدع بقدرته على تهدئتهم وجعلهم يسترخون هم وأبناؤهم؛ لأن الشاشة الصغيرة في واقع الحال لا تؤذي إلا إذا بالغنا أو أسأنا استعمالها! فلا يوجد تلفاز واحد لكل عائلة، وإنما تلفازات مختلفة لعوائل مختلفة.

### العائلة اليوم

#### شاشة تلفاز وعالم دون نظام!

يعيش الطفل منذ سنين عمره الأولى في بيئة متغيرة وغالباً غير مستقرة بسبب عمل الأم، ويؤكد المختصون بعلم النفس على أهمية الاستقرار بالنسبة للطفل الصغير.

ما نتائج هذه الحالة من عدم الاستقرار؟

تزداد نسبة النساء العاملات باستمرار، والطفل الذي طالما تمنيناه وأحببناه ودللناه وداعبناه أصبح يعيش مع والديه مدة تزداد قصراً، إنه يقضي معظم وقته في دار الحضانة مع حاضنات وحارسات، وفي المدرسة بعد ذلك، أو أمام التلفاز، والقليل من الوقت الذي يقضيه مع والديه مخصص للهو واللعب، ومن ثم للمتعة والسرور، وأصبح الوقت المخصص لنقضيه معاً نادراً، إن اللحظات التي تجتمع العائلة فيها فتقوى رابطتها، تحد بنفس الوقت الانخراط في الحياة المشتركة مع المجتمع.

لم يعد بيت العائلة مكاناً للتواصل وإنما عشاءً ثنائياً وملجأً، و«الجنة» أكثر من كونها انعكاساً لصورة الحياة، ويمكننا أن نقول إن العائلة تشكل عازلاً بين الطفل وواقع الحياة، سابقاً كان الطفل يرى والديه في وسطهما المهني، وتتكون شخصيته على الواقع بقربهما، وهو يراهما غارقين فيه، كان يستوعب ويتمثل هذا الواقع شيئاً فشيئاً بشكل طبيعي من خلال نضج بطيء ومستمر كان يحدث عفويًا، إنه من الواضح أن عائلة فيها طفل وحيد، ومنتقوعة على نفسها لا تصلح لأن تكون مكاناً لاختبار الاحتكاك بالناس، إن الأطفال الكبار بخلاف الذين سبقوهم بالعمر يبقون أطول مدة ممكنة ضمن عوائلهم وذلك بإرادتهم، هل هذه الظاهرة هي مرحلة مراهقة تطول أكثر فأكثر؟، أم أنها رفض للنضج، أم أنها تعبير عن الحرمان من انسجام عائلي مطلوب؟

قبل عشرين عاماً كان البقاء مع الوالدين يعني احترام أوقات الدخول والخروج من المنزل، أما اليوم فالبيت العائلي غداً نزلًا، فنحن نفعل ما نريد، ونحصل فوق ذلك على الراحة. الحرية الكاملة: لم يعد هناك ضوابط، ولم يعد هناك ممنوع. وفي النهاية فالوضع غير صحي: يتحمل الوالدان حتى ما يجرحهما ويصدمهما، خوفًا من خسارة أطفالهما، فهما لم يعودا يلعبان دورهما كوالدين، وإنما يلعبان دور الصديق، إن من أكبر فجوات التربية الحديثة تقلص ما كان ممنوعاً لعدة أجيال، لم يعد الوالدان قادرين على حفظ الغيرية\* والمراهقون لا يجدون من يتمردون ضده. فنحن نعيش في جو من السلبية المستمرة دون قواعد حياة مفروضة. لقد انتقلنا من عالم النظام إلى عالم الفوضى. إن هذا عاملاً من عوامل التفتح دون

\* الغيرية: (ما يخص الآخر) وهي عكس الذاتية (ما يخص الذات).

شك، ولكنه يصعب التعايش معه؛ فلم يعد كافياً أن نعيش على هوانا، وأن لا نتبع التقاليد، والعادات المتوازنة. لقد أصبح من الصعب أن تكون والدًا؛ فقد بات من الضروري إعادة اكتشاف كل شخص وكيفية التعامل معه في كل حالة.

أقوال انتقتها ليليان ديلواس. منتقاة من مقابلة مع لويس روسيل مختص بالإحصاء وعلم الاجتماع مجلة عالم التربية، عدد أيلول 1989م.

### التلفاز والعلاقات بين الأقران - اللغة

يقول كثير من الوالدين أن امتلاك التلفاز يعني عدم الرغبة في جعل الطفل متطرفاً مقارنة بأصدقائه، إن صدق هذه الحجة مشكوك به، ويمكن تفسيرها بإلقاء اللوم على الآخر، أكثر من تفسيرها بالكرم التربوي الاجتماعي.

ولكن يبدو على كل حال مؤكداً أن مشاهدة التلفاز هي أيضاً طريقة للاندماج في مجموعة الأقران، إن مشاهدة نفس البرنامج، أو نفس الفيلم يسمح في الغد بالمشاركة بنفس النقاشات ونفس اللعب المشترك مع الأطفال الآخرين، ويتم مرجعية (نحن لا نجرؤ على استخدام كلمة «ثقافة» في هذا الموضوع) مشتركة ولكن عابرة، ويجب عند تقييم هذه النقاشات بين الأطفال حول برنامج معين أن نضعها في موضعها المناسب.

فمشاهدة الصور المتحركة والأفلام والمسلسلات لا تثير فضولاً يتجاوز تعابيراً مثل «لذيذ» أو «رائع» أو «لابأس»، وربما في لحظات عابرة من دردشة طويلة وصفاً حاكياً بالصوت\* لمطاردة بالسيارات في شوارع

\* حاكية صوتية: كلمة يحكي صوتها صوت الشيء الذي تصفه.

لوس أنجلوس أو سان فرانسيسكو، غير مفيد ولا يهم أحداً؛ لأن الجميع شاهد بأم عينه السيد هاري يصفى حسابه مع كل أولئك «الأوغاد». وبالتأكيد كل هذه «الحوارات» تنتهي كالأتي «غداً يوجد فيلم لرامبو على المحطة الثالثة، وإذا لم أتمكن من رؤيته، فسوف أسجله على شريط فيديو». إن المتع التلفزيونية ليست قابلة للاسترجاع، لأنها آنية أو متعلقة بالمستقبل القريب المنظور.

لا يعلم التلفاز اللغة؛ لأنه أولاً وقبل كل شيء ليس سوى مَشاهد، فاللغة بوضوح ذات جانب اجتماعي ووظيفي، ويحتاج تعلمها لعلاقة تبادلية مع الطفل حتى يتمثلها، «يتكلم الأطفال بنفس طريقة كلام والديهم؛ لأن هؤلاء وليس التلفاز يلبون حاجاتهم» هذا ما تقوله باربارا أ. فولز.

ليس التلفاز عاجزاً عن تعليم الطفل الكلام فحسب، ولكنه لا يدفع للحوار بين الأطفال حتى عندما يشاهدونه معاً. «ميريه شالقون الصحفية ومنتجة برامج الأطفال، أظهرت أن التلفاز هو وسيلة سيئة للتعلم، وأن «الشاشة تعيق تعلم اللغة».

أولاً: «لأن التلفاز سريع والصورة تتبعها صورة، (...) إنه لا يدع الوقت للتفكير، ولا يسمح بالرجوع للموضوع بتؤدة، كما نفعل في عبارات الكتاب الذي نقرؤه، ولا يمكن له أن ينطبع في الذاكرة لوقت طويل، إن من النتائج الأخرى لهذه السرعة: ضرورة فهمه سريعاً...».

ثانياً: «مبدأ عمل التلفاز هو تتابع الصور، وهذا لا شيء فيه، ولكنه أصل العلة، إن التلفاز لا يعين على التمكن من اللغة لأنه من غير المفيد تسمية ما نرى، إضافة إلى أنه يميل إلى تحويل الأحداث والأفكار إلى عرض

ومشاهدة، وبما أنه يزود بالصور، فإنه يخاطب العاطفة أكثر من مخاطبة العقل، ويُزود بحساسية وشفافية تجاه الأشياء أكثر من تزويده بمعارف تتعلق بها».

### الطريقة الأمريكية لحياة التلفاز

حالة الولايات المتحدة:

• البرامج مستمرة 24 ساعة في اليوم.

• صباح يوم السبت: ثلاث محطات مخصصة بالكامل للأطفال من 2-11 سنة = 33 مليون طفلاً.

الشتاء: 2-5 سنوات: 4 ساعات و 46 دقيقة في اليوم.

6-11 سنة: 4 ساعات و 14 دقيقة في اليوم.

الصيف: ساعتان تقريباً في اليوم.

المعدل السنوي للمشاهدة: 3 ساعات و 39 دقيقة في اليوم، وهذا

يساوي 24 ساعة بالأسبوع، وهذا يساوي 1300 ساعة في السنة.

يقضي الطفل الأمريكي أمام شاشة التلفاز عدد ساعات يفوق

عدد الساعات التي يقضيها في المدرسة.

87% من الأطفال يشاهدون برامج ليست مخصصة لهم!

معلومات مستقاة من محاضرة ألقته الدكتورة كارين بوتشي طبيبة

ملحقة بإدارة الخدمات الصحية للتعليم الحكومي بمقاطعة جنيف.

لوكارنو، تشرين أول 1990م.

ثالثاً: «يتوجه التلفاز إلى كل الناس بنفس الوقت، ولا يمكنه أن يلاحظ مستوى كل شخص على حدة، وهذا أمر يجب مراعاته في كل إجراء تعليمي. وهكذا يتعلم الطفل أموراً جديدة دون أن يعرف أين تجري، وبدون إدراك لوسطها الجغرافي أو التاريخي أو السياسي».

سواء كان ذلك ضمن العائلة، أو بين القُرناء، لا يُولد التلفاز موضوعاً للحديث، ولا يساهم في إغناء المفردات الفاعلة، وذلك لأن اللغة المستخدمة في الرائي معظم الأحيان هي ثمرة حديث أو لغة ناطقة بأسلوب مباشر. الأزمنة اللغوية بسيطة، ويستبدل الاسم، والتعجب هو السائد، الكلمة ليست سوى أداة تخريب لآلهة الصورة، التي تحكم الدين المهبطي الجديد.

### اللعبة - الألعاب

إضافة إلى اللغة يشكل اللعب أحد العناصر المهمة التي تساهم في بناء وتطور شخصية الطفل، ويُعرف الاختصاصيون النفسيون والمربون اللعب على أنه نشاط جسدي أو ذهني دون هدف مفيد بالضرورة نلجأ إليه للحصول فقط على المتعة التي يعطينا إياها، فإذا تمسكنا بهذا التعريف الوحيد والموجز فسيكون بحوزتنا في النهاية! دور نبيل استُحدث لهذا التلفاز صياد الأطفال المثير للجلبة، وكما هي الحال في اسكتش فرنان رينو حول «البرتقالات»، يبقى علينا فقط إزالة بعض الألفاظ من الإعلان المُغري «التلفاز هو اللعبة».

هل مشاهدة التلفاز نشاط جسماني؟ حتى وإن مررتهم مرور الكرام على الفصل المخصص للصحة الجسدية للطفل مدمن التلفاز، فإن الجواب على السؤال واضح دون نقاش، إلا إذا اعتبرتم أن الطاقة المصروفة لتحريك سبابة اليد اليمنى التي تقلب المحطات تستحق أن توصف بكلمة الجهد.

هل مشاهدة التلفاز نشاط فكري؟ لعلمنا بأن كل حالة وعي - بما في ذلك النوم - تسبب فعالية دماغية، فإن بإمكاننا أن نتخيل أن مشاهد التلفاز عندما يكون في أقصى درجات تفاعله مع ما يشاهد يُبقي بعض الخلايا العصبية في حالة التأهب، ولكننا لا نعطي أي قيمة لعبية أو تأهيلية للمشاهدة السلبية، ونضم بذلك رأينا إلى رأي أ. ماكارينكو الذي يصرح بما يلي: «في كل لعبة مفيدة، يوجد أولاً جهد جسدي وجهد فكري (...). إن لعبة دون نشاط أو بذل جهد هي لعبة سيئة دائماً، يمكننا أن نواصل الشرح، ونتابع تحليل عبارات مثل «اللذة المستفادة» و«بدون فائدة»، ولكن يبدو لنا أن هذا الأمر غير مفيد؛ لأن الشرط الأول لكل لعبة يبقى الحركة، وأن العطالة التي يقتضيها «فعل» مشاهدة التلفاز تبدو لنا أكثر قدرة على خلق النشاط منها على تحريضه بطبيعة الحال: فإذا لم يكن التلفاز لعبة بحد ذاته، فهل يمكنه أن يوحى للطفل باللعب؟

بالتأكيد نعم؛ وخاصة عند الأطفال الأصغر سناً الذين يجدون في أبطال صورهم المتحركة مصادر ثرة لمشاهد لعبية. مصادر غنية؟ ليس بالتأكيد!.

إن المربيات في دور حضانة الأطفال، ومدرسات الأطفال في الأعمار الصغيرة اللواتي يشهدن عن قرب - أطفالنا الصغار، يؤكدون وجود نقص واضح في لعب الأطفال، وفي لغتهم وحتى رسومهم بعد مددٍ من المشاهدة الطويلة للتلفاز (الطقس السيئ - الفصول الباردة)، وهذا ينطبق خصوصاً على الذكور الذين يبدوون أكثر قابلية للتأثر بالتلفاز من البنات في هذا العمر؟ أما ما يتعلق بالإبداع والقدرة على الاختراع، وهما هدفان

أساسان للعب كأداة لبناء الشخصية، فإن التقليد الحريفي غالباً للمشاهد المرئية في الليلة السابقة لا يدع لهما أي مجال.

السيدة لوفنت سيكوس التي تعمل كمدرسة كتبت: «ما يثير القلق بالنسبة لنا كمدرسين هو ملاحظة كيف يلعب مسلسل تلفازي مثل سلاحف النينجا دوراً هداماً في القضاء على عالم الخيال والإبداع عند الطفل، أصبح اللعب الذي يعتبر أداة أساساً في نمو الطفل وتطوره إعادة دقيقة لآخر حلقة شاهدها من سلاحف النينجا، ونجد فيه اللغة نفسها ونبرة الصوت والحركات ذاتها، وويل للطفل الذي لم يهتم بشخصيات المسلسل لأنه سيتم استبعاده من المجموعة. لقد وصلنا لدرجة أن على الطفل الذي يُقبل في اللعبة أن يقلد كالقرود إحدى سلاحف النينجا ليظهر كفاءته في اللعب! ربما كان هذا النمط من السلوك موجوداً دائماً، ولكن عندما نطلع على فحوى هذه المسلسلات، فلا بد أن يصيبنا الهم!

إن من سوء حظ المدرس أن هذه الشخصيات لا تظهر فقط أثناء لعب الأطفال، وإنما في رسومهم كذلك، وفي نشاطاتهم اليدوية، وفي طريقة كلامهم، إن لم يكن في مجيئها للمدرسة بشكلها البعيد عن الحس الجمالي، وهذا تعبير عن استمرار حتمي لدعايات تجارية تظهر على التلفاز خلال مسلسلات الأطفال» انتهى كلام لوفنت سيسكو.

وهنا يظهر على السطح سؤال مهم: ألا يمنع التلفاز الذي يستهلك بشراهة الوقت المخصص للطفل من الاستمتاع بكثير من فرص الاحتكاك الاجتماعي، كاللعب الحقيقي مع أصدقائه والرحلات والنشاطات خارج حيز المدرسة؟

ولابد لنا من أن نذكر بأن معظم الأطفال يقون جالسين أمام التلفاز لأنه ليس لديهم خيار أفضل، فلو استطاعوا أن يختاروا لاختار الكثير منهم الخروج مع والديهم أو اللعب مع أصدقائهم، ويذكر كلاً من شالقون وكورسيه أن: «من الأمور العجيبة أن التلفاز أصبح للكثير من الأطفال ملجأً ووسيلةً وخياراً ثانياً لشغل الوقت: فإذا كان بإمكان الطفل أن يختار بين عدة نشاطات ترفيهية، فسنلاحظ أن «مشاهدة التلفاز» تأتي بنسبة (11%) من الخيارات، بعد «ممارسة الرياضة» (36%)، و«الذهاب للسينما» (20%)، أو «الخروج مع الأهل أو الأصدقاء» (12%). فكما هي الحال بالنسبة للبالغين يبدو أن سحر الرائي قد انتهى وغداً واحداً من الأدوات المنزلية الكهربائية العادية الذي يُلون الحياة، ولم يعد مصدر شغف كبير».

أما بويان ودارتيثيل فيصلان إلى نفس الاستنتاج عند المراهقين: «تبدو مشاهدة التلفاز كنشاط عائلي لابد منه، وخضوع للنظام العادي الرتيب. وقد وصل درجة من الاهتراء والاعتياد حتى أننا لم نعد نطلب منه سوى أن يكون حاضراً، ولو كان الأمر عائداً إليهم في قضاء سهرتهم، لاختار تسعة من أصل عشرة مراهقين أن يمارسوا بعض الأعمال المنزلية اليدوية، أو الذهاب للسينما. أقل من 10% سيفضلون التلفاز على النشاطات الأخرى».

وعلى غرار الكثير من الكتاب لا يمكننا إلا أن نلاحظ التناقض الواضح في مواقف الأهل مع أطفالهم بخصوص التلفاز، إنهم يريدون من أطفالهم أن يلعبوا، ولكنهم يرغبون برؤيتهم مسمرين أمام التلفاز عندما يرغبون بالحصول على الهدوء، ولابد لنا أن نكرر: إنهم بحاجة لمربية أطفال

منزلية (التلفاز) تتقاضى أجراً زهيداً قدره 25 قرشاً بالساعة (وهذا أجر لا يمكن منافسته خاصة وأنها خدمة متوفرة في أي وقت!).

إن البنت البكر لأحد مؤلفي الكتاب بعد عودتها من إقامة دامت عاماً عند عائلة أمريكية تقول بشيء من الدعابة: «هنا بمجرد أن يجلس أخي الصغير لوان أمام التلفاز تقيمون الدنيا وتقعدها لتدفعوه للخروج واللعب خارج المنزل.

أما في أمريكا، فإذا عادت الأم ولم تجد طفليها مُسمرين أمام شاشة أحد أجهزة التلفاز، فإنها تبحث عنهما في كل الحي لتقنعهما بأن التلفاز يعرض برامج رائعة تناسبهما، وأن عليهما العودة للمنزل مباشرة!».

### الرداءة ليست قدراً

يبدو أن البالغين أصابهم الإحباط، وأنهم يقفون عاجزين أمام التلفاز، هذا إن لم يكونوا مفتونين به، إن تلفاز الصباح يعطينا المثال على ذلك، في عام 1984م، 94% من الناس الذين استجابوا أجابوا بأنهم لا يسمحون لأطفالهم بمشاهدته، وبعد ثلاث سنوات، أصبح 27% من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 7 و 10 سنوات يتناولون فطورهم وهم يتمتعون بمشاهدة الرسوم المتحركة قبل ذهابهم إلى المدرسة! «أصبح التلفاز موضوعاً تجارياً، ولم تعد له أهداف الخدمات الحكومية، فماذا بإمكاننا أن نفعل؟...» هذا هو التعليق السهل الذي نسمعه غالباً، ولكن أليس هذا سبباً كافياً يدعونا للمطالبة بالقليل من الشروط؟ إن المُنتج الذي لا يجد له رغباً يُسحب من السوق، فإذا كان الأطفال مصدرراً من مصادر

دخل محطات التلفاز، أفلا يحق لهم - ككل مستهلك - الحصول على النوعية الجيدة والخيارات المتعددة والتنوع؟ فإذا كنا نقبل بالمنطق التجاري فدعونا نصل فيه إلى نهايته، إن إعادة بث مسرحية يكلف أقل من «صور شبه متحركة»، إن فيلماً وثائقياً جيداً يمكن له أن يعاد بثه بانتظام، فجمهور المشاهدين من الأطفال له ميزة التجدد بسرعة (ففي فرنسا 750000 ولادة سنوياً). كما أن تقريراً مصوراً يمكن له أن يُصدّر للخارج، وهذا لا ينطبق على البرامج الحية المباشرة المؤسفة، فالرداءة ليست قدراً.

هل الفتاة تبالغ مستهزئة؟ ليس تماماً... فما حصل في الولايات المتحدة قبل 4 سنوات، هو دون شك ما يحصل في فرنسا أو سويسرا في العام 2000م أو قبل هذا التاريخ إذا اعتمدنا على تصريحات لوان الذي يعود من اكتشافاته مع أصدقائه في شوارع القرية قائلاً: «لا توجد قطة في الشارع، فالجميع يشاهد التلفاز!».

أمريكا على أبوابنا: هذا ليس مدعاة للفرح! وخاصة إذا أتحننا الفرصة لألبرت أينشتاين الملاحظ الدقيق ليقدم للفصل اللاحق المتعلق بالثقافة: «مرت الولايات المتحدة من الهمجية مباشرة إلى الانحطاط دون المرور بالحضارة».



«لا تموت ثقافة إلا بسبب ضعفها»  
 أندريه مالرو (1901م – 1976م)  
 كتاب فتنة الغرب

## الفصل السادس

### أي ثقافة نختار لأبنائنا؟

«ليس التلفاز سوى أداة، يمكن أن تسخر للخير أو الشر، ولا أحد يستطيع أن يدعي بطيب نية أنه لا توجد برامج مفيدة تربوية وتكوينية وثقافية!». إن هذه الحجة التي يلجؤون إليها كثيراً لإقناعنا تبدو مقنعة للوهلة الأولى، وتستحق أن نعلق عليها.

أولاً: وبحكم كوننا مدرسين لا يمكننا إلا أن نفخر بجميع التعابير مثل: «تربوي» و«تكويني» و«مفيد» و«ثقافي». وهذا يظهر مدى احترام الناس للمدرسة القائمين عليها بشكل خاص، ولكننا لسنا مقتنعين بأن المؤسسة التعليمية الحالية تستحق دائماً هذا المديح، فعندما نضعها تحت الأضواء، ونراها بأعين الوالدين والصحفيين والأوساط الاقتصادية والسياسة، فإن نوعاً آخرى أقل إطراء تنطلق غالباً عن علم ودراية.

### الثقافة وانعدام الثقافة

وعلى كل حال فالمدرسة ليست موضوع حديثنا، ولنعد إلى أغنام بانورج وراعيتهم (مثل فرنسي يعني العودة إلى الموضوع الأصلي) أي التلفاز! فكلمة «ثقافة» قد أطلقت، وكلما حاولنا أن نتخيل أثراً إيجابياً للتلفاز على